

ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم : أسرار وتأملات بلاغية

د. عبدالرزاق حسين أحمد^(*)

(*) أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع جيبوتي.

ملخص البحث

يُعنى هذا البحث بضمير الفصل وأثره في إبراز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وهو بعنوان: ((ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم: أسرار وتأملات بلاغية)).

ويشتمل البحث - بعد المقدمة - على فصلين :

الفصل الأول: مقدمات موجزة لأبرز مسائل ضمير الفصل، وهي مسائل كثر فيها الجدل والنقاش عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين كتسميات هذا الضمير، وهل هو اسم أم حرف؟ وإن كان اسماً فهل له محل من الإعراب أم لا؟ وما شروطه؟

وهذا الفصل توطئة للفصل الثاني؛ لنكون على إمام ودراية بالموضوع الذي نتناوله بالدراسة.

الفصل الثاني: فقد تتبّع البحث الوظائف البلاغية لضمير الفصل في القرآن الكريم، وعرض ثلاث وظائف :

أولها: وظيفة التوكيد والتقوية، وآثرنا مزيداً من التحليل لآيات من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، برز فيها أسلوب التوكيد بضمير الفصل في موطن، ولم يؤكّد في موطن آخر شبيه بها.

وثانيها: وظيفة القصر والحصر والاختصاص.

وثالثها: وظيفة التمييز بين الخبر والتابع.

وانكشف لنا من خلال عرض أمثلة تلك الوظائف معان وكنوز مستورة تحت تعبيرات هذا القرآن المعجز.

وأخيراً خُتم البحث بخاتمة فيها جملة من النتائج.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ الضمائر في القرآن الكريم وفي اللغة العربية من المواضع التي حظيت بنوع من العناية في كتب النحو، وكتب البلاغة، والتفسير، وعلوم القرآن.

ولا يكاد يخلو كتاب من تلك الكتب المتنوعة، والفنون المختلفة من الحديث عن الضمائر، إما بياناً لأقسامها وتفرعاتها، وإما شرحاً وتحليلاً لمرجعها.

إلا أنّ هناك نوعاً من أنواع الضمائر لم يحظ بتلك العناية، ولم تُبرز أسرارها ودلالاته البلاغية، وهو الضمير المسمى بـ "ضمير الفصل".

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

يكتسب هذا الموضوع أهميته الكبرى من ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم، والكشف عن أسرار البلاغية، ونكته البيانية عبر هذا الضمير الذي يؤدي دلالاتٍ متنوعة في السياقات القرآنية.

وثمة أسباب دعّني لاختياره، من أبرزها :

أولاً: سبق أن كتبت دراسة علمية في كشف الأسرار البلاغية للإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم، بعنوان: الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم: مفهومه، أغراضه، عناية المفسرين به^(١).

وهذا البحث يأتي استكمالاً لذلك المشروع؛ وليكشف جوانب جديدة من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم.

ثانياً: كثرة ورود ضمير الفصل في القرآن الكريم بصيغ متنوعة (متكلم

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد التاسع، جمادى الآخرة ١٤٣١هـ - يونيو ٢٠١٠م، ثم طبع مؤخراً (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م) لدى قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت.

- مخاطب - غائب)، وقد أحصى الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة - رحمه الله - في كتابه الفذ "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" أكثر من مائتين وعشرين ضميراً من ضمائر الفصل من أول القرآن إلى نهايته^(١).

إنَّ ورود هذا الكم الهائل من ضمائر الفصل أمرٌ يسترعي انتباه الباحثين، ويدعوهم إلى التأمل وإدامة النظر للوقوف على ما تُوحى به تلك الضمائر من دلالات، وما أروع وأجمل التدبر في أسرار هذا الكتاب المعجز، والعيش في رحابه، فتلك أسعد لحظات يعيشها المسلم في هذه الحياة، ورحم الله ابن القيم فمن درر كلامه قوله: ((... فما أشدها من حسرة، وما أعظمها من غبنة، على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم خرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسرارهِ ومعانيهِ))^(٢).

ثالثاً: تأديته معاني دلالية متنوعة في السياقات القرآنية، وتلك من الخصائص التي يختص بها هذا الضمير عن بقية الضمائر.

رابعاً: ما وجدته من إشارات تشجيعية لبعض المفسرين والبلاغيين قديماً وحديثاً حول أهمية هذا الموضوع، ومن هؤلاء:

- شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، فقد قال في معرض حديثه عن بلاغة القصر في ضمير الفصل: ((وهذا فنٌ عجيب الشأن، وله مكان من الفخامة والنُّبل، وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه، والمعول فيه على مراجعة النفس واستقصاء التأمل))^(٣).

- ومنهم أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) الذي ذكر في تفسيره "البحر المحيط" أنَّه ألَّف رسالة مستقلة في أحكام ضمير الفصل^(٤).

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة (١/١٣٢- ١٤٩ القسم الثالث).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١/٣٣٨).

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ص: ١٨٣).

(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٤٤).

- ويقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في معرض حديثه عن مجيء ضمير الفصل من أجل التأكيد : ((إن قيل في هذا الموضع : إنَّ الضمائر مذكورة في كتب النحو، فأبي حاجة إلى ذكرها هاهنا، ولم نعلم أنَّ النحاة لا يذكرون ما ذكرته ؟ قلت : إنَّ هذا يختص بفصاحة وبلاغة، وأولئك لا يتعرضون إليه، وإنما يذكرون عدد الضمائر، وأنَّ المنفصل منه كذا، والمتصل كذا، ولا يتجاوزون ذلك، وأما أنا فإنني أوردت في هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوي ... وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة، وهو من أسرار علم البيان))^(١).
وقال أيضاً : ((وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه))^(٢).

- وللدكتور محمد أبو موسى كلام نفيس في أهمية إبراز بلاغة ضمير الفصل يقول فيها : ((نبه العلماء إلى مواقع في ضمير الفصل اقتضتها دواع خفية يجد لها الدارس المتذوق فضلاً ومتاعاً))^(٣).

- وجاء في الاقتراحات التي قدّمها الدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي في بحثه الموسوم بـ "الضمائر المُحتَمَلة في القرآن الكريم" قوله : ((إنَّ الضمائر في القرآن الكريم تحتاج إلى خدمة كبيرة، وخصوصاً من حيث إبراز قواعدها، ودراستها دراسة وافية مدعّمة بالأمثلة ...))^(٤).

أهداف الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدة أهداف، منها :

- ١ - إظهار الصلة القوية بين القرآن الكريم واللغة العربية الموصوفة بالبيان في قوله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].
- ولا سبيل لنا إلى معرفة حقائق إعجازه والوقوف على مقاصده إلا عن طريق تلك اللغة، فمن اغترب منها اغترب عن حلاوة القرآن.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/٢٠٣).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٠٩).

(٣) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى (ص ٩٣).

(٤) الضمائر المحتملة في القرآن الكريم للدكتور ملفي الصاعدي (ص: ١٠٠) بحث محكم منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.

٢ - إبراز وجه من وجوه البلاغة التطبيقية في القرآن الكريم من خلال عرض وظائف ضمير الفصل، والكشف عن الأسرار البلاغية والنكت البيانية لأمثلة تلك الوظائف.

٣ - سدُّ ثغرة موجودة في المكتبة القرآنية، فليس هناك - حسب علمي - دراسة علمية تناولت بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم، ولعل نشر هذه الدراسة يستثير قريحة الباحثين والمتخصصين للمزيد من الاهتمام بهذا الموضوع.

منهج الدراسة :

إنَّ المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة يتلخص في الآتي :

١ - قمت بجمع المادة العلمية واستخراجها من مظانها المتنوعة من كتب النحو، وكتب البلاغة، وعلوم القرآن، والتفاسير، ومن ثمَّ تنظيمها وترتيبها وفق الخطة الآتية.

٢ - وثَّقت نقول أهل العلم من مظانها الأصلية ومراجعتها المعتمدة قدر المستطاع.

٣ - اقتصررت في الجانب البلاغي على إبراز بلاغة ضمير الفصل في ظل السياق الدلالي للآيات التي هي مدار البحث مستعيناً على ذلك بأقوال المفسرين والبلاغيين ومؤلفي كتب توجيه المتشابه اللفظي.

٤ - اقتصررت في المسائل النحوية على ما يخدم هذه الدراسة، ويتطلبها الأمر لتخرج في صورة سوية متكاملة، أما غير ذلك: فلم أُنطرق إليه، لكي لا تخرج الدراسة عن إطارها التخصصي.

٥ - ناقشت في المسائل التي تستدعي المناقشة، ورَجَّحت ما أراه راجحاً مع ذكر وجه الترجيح.

٦ - رتبت المصادر والمراجع في الحاشية على حسب أقدمية مؤلفيها، وقد أخالف لفائدة علمية.

٧ - لم أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في هذه الدراسة خشية الإطالة، ولشهرتهم وغناهم عن التعريف، وإنما ذكرت سني وفياتهم عند أول ورود لهم.

خطة الدراسة:

اشتمل البحث على مقدمة وفصلين وخاتمة.

أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة الدراسة، والدراسات السابقة في الموضوع.

وأما الفصلان فقد تمّ تناولهما على النحو التالي :

الفصل الأول : مقدمات موجزة لأبرز مسائل ضمير الفصل، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : المفهوم اللغوي والاصطلاحي لضمير الفصل.

المبحث الثاني : تسميات ضمير الفصل عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين.

المبحث الثالث : ضمير الفصل بين الاسمية والحرف.

المبحث الرابع : ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه.

المبحث الخامس : شروط ضمير الفصل.

الفصل الثاني : وظائف ضمير الفصل في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : وظيفة التوكيد والتقوية.

المبحث الثاني : وظيفة القصر والحصص والاختصاص.

المبحث الثالث : وظيفة التمييز بين الخبر والتابع.

الخاتمة : وفيها أبرز نتائج هذه الدراسة.

هذا، وأسأل الله عز وجل أن يبارك في هذا الجهد المتواضع، وأن يسدد الخطى، وأملّي كبير أن أكون قد وفّقت في الإسهام في خدمة كتابه، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدراسات السابقة في الموضوع :

في حدود اطلاع الباحث لم يُعثر على دراسة علمية مستقلة تناولت بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم، ولكن ثمة مؤلفات قديمة ودراسات معاصرة لها علاقة بموضوع بحثنا؛ إذ إنَّ ضمير الفصل ما هو إلا نوع من أنواع الضمائر.

وقد كانت عناية العلماء بموضوع الضمائر قديمة، حيث ذكر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ): أنَّ لابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) مصنفاً في الضمائر في مجلدين^(١).

كما ذكر ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) في الفهرست كتاباً لأبي عمر حفص الدوري (ت ٢٤٦هـ) في الضمير ومرجعه^(٢).

وممن أَلَفَ في ضمائر القرآن: أحمد بن جعفر الدينوري (ت ٢٨٩هـ)، وشمس الدين الكرمانى (ت ٧٨٦هـ)^(٣).

ولأبي حيان الأندلسي رسالة مستقلة في أحكام ضمير الفصل، يقول في تفسيره "البحر المحيط" : ((وقد جمعت أحكام الفصل مجردةً من غير دلائل في نحو من ست ورقات))^(٤).

وقال أيضاً: ((وقد تقدم الكلام في الفصل وفائدته، وهو من المسائل التي جمعت فيها الكلام في نحو من سبع أوراق أحكاماً دون استدلال))^(٥).

وهذه المؤلفات كلها مخطوطات مفقودة لم تر النور بعد.

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٣/٤)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٥٩٧/١).

(٢) انظر: الفهرست لابن النديم (ص: ٤٠).

(٣) انظر: فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم (٩٧٠/٢) إصدار مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (١/٤٤).

(٥) المصدر السابق (١/٣٨٨).

وأما الدراسات المعاصرة فقد اتخذت ثلاثة مسالك في تناولها لموضوع الضمائر، وهي على النحو التالي:

المسلك الأول: دراسات تناولت أحكام الضمائر وتقسيماته وقواعده بصفة عامة، ويغلب عليها الطابع النحوي، منها:

١ - الضمائر في اللغة العربية للدكتور محمد عبد الله جبر^(١).

٢ - الضمائر في اللغة العربية للباحث محمد حفيظ^(٢).

المسلك الثاني: دراسات تُعنى بمرجع الضمير، واحتمال تعدده وأثر ذلك في المعنى، ومن ذلك:

١ - مرجع الضمير في القرآن الكريم: مواضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب للدكتور محمد حسنين صبرة^(٣).

٢ - الضمائر المُحتملة في القرآن الكريم للدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي^(٤).

المسلك الثالث: دراسات بلاغية، وأبرزها دراسة الدكتور عويض بن حمود العطوي المعنونة بـ "الضمير المنفصل في النظم القرآني"^(٥).

وأحسب أنه لا تخفى على أهل الاختصاص الفروق بين الضمير المنفصل وضمير الفصل، فضمير المنفصل أعمُّ وأشمل من ضمير الفصل، كما أنَّ لكل منهما وظائفه وخصائصه.

(١) طبعته دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٢) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بمكناس، المغرب، ١٩٩٣م.

(٣) رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم، القاهرة، ونشرتها دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٤) بحث محكَّم منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.

(٥) رسالة ماجستير في البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤١٦هـ، ولم تنشر بعد.

الفصل الأول

مقدمات موجزة لأبرز مسائل ضمير الفصل

المبحث الأول

المفهوم اللغوي والاصطلاحي لضمير الفصل

المطلب الأول

التعريف اللغوي لضمير الفصل

الضمير في اللغة هو الإخفاء، يقال: أضمَر الشيء: أخفاه، ويقال: أضمَر في نفسه شيئاً: أي عزم عليه بقلبه^(١).

ويُعرف عند أهل الكوفة بالكناية، وهي تسمية يلحظ فيها - أيضاً - معنى الخفاء والستر^(٢).

وأما الفصل فهو مصدر لفعل "فَصَلَ"، يقال: فَصَلَ بينهما يَفْصِلُ فَصْلاً، وفي التنزيل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧] أي: يقضي ويحكم^(٣).

المطلب الثاني

التعريف الاصطلاحي لضمير الفصل

ضمير الفصل في المفهوم الاصطلاحي: هو صيغة ضمير منفصل مرفوع

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٧١)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ٥٥١) (ضمر).

(٢) ينظر: مصطلحات النحو الكوفي: دراستها وتحديد مدلولاتها، للدكتور عبد الله الخثران (ص: ٦١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٤/٣٣٧).

يتوسط بين المبتدأ والخبر^(١)، نحو قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، أو ما أصله المبتدأ والخبر كقوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْنَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

والمتمامل في التعريف يجد أننا اخترنا لفظ: صيغة ضمير منفصل، ولم نقل: ضمير منفصل؛ وذلك للإشارة إلى الخلاف الواقع في اسميته أو حرفيته كما سيأتيت.

قال الرضى (ت ٦٨٦هـ) في شرحه لكافية ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ): ((ويتوسط بين المبتدأ والخبر قبل العوامل وبعدها صيغة مرفوع منفصل مطابق للمبتدأ يُسمَّى فصلاً))^(٢).

المبحث الثاني تسميات ضمير الفصل عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين

إنَّ أول من أطلق على هذا الضمير فصلاً هو الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) أستاذ سيبويه^(٣)، وتبعه سيبويه (ت ١٨٠هـ) في ذلك حيث عقد باباً بعنوان: ((هذا باب ما يكون فيه هُوَ وأنت وأنا ونحن وأخواتهن فصلاً))^(٤)، ثم عرض لبعض الأمثلة التي جاءت في القرآن الكريم^(٥).

(١) انظر: شرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني)، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (٢/١٤٣ - ١٤٤)، وتعليق الفرائد على تسهيل الفوائد للدماميني (٢/١٢٩)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٦٠١)، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة (١/١٣٢ القسم الثالث).

(٢) شرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني)، وانظر أيضاً: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي (١/٤٨٩).

(٣) ينظر: الكتاب لسيبويه (٢/٣٨٩).

(٤) المصدر السابق مع الصفحة نفسها.

(٥) المصدر السابق (٢/٣٩٠ - ٣٩٢).

وتسميته بضمير الفصل مصطلح البصريين^(١)، وأما الكوفيون فسمّوه عماداً ودعامة^(٢).

يقول ابن مالك (ت٦٧٢هـ): ((من المضمرات المسمّى عند البصريين فصلاً، وعند الكوفيين عماداً))^(٣).

وقال أبو حيان: ((والفصل هو صيغة ضمير منفصل مرفوع، ويسميه الفراء وأكثر الكوفيين عماداً، وبعض الكوفيين يسميه دعامة، ويسميه المدنيون صفة))^(٤).

وجاء في كتاب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) باب بعنوان: ((شرح حال المسمى فصلاً وعماداً))^(٥).

كما استعمل الطبري (ت٣١٠هـ) والقرطبي (ت٦٧١هـ) في تفسيريهما مصطلح "العماد"، منفرداً حيناً، ومقترباً بالمصطلح البصري حيناً آخر^(٦).

ويرى أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) أنَّ هذا الضمير يُسمى عند البصريين "الفاصلة" حيث قال في توجيه قوله تعالى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين لابن الأنباري (٧٠٧/٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (١٠٩/٣)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١٦٩/١) القسم الثاني، والمساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل (١/١١٩)، والطرز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي (٢/١٤٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (٢٤٨/١) (٢٥٢/٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (٣/١١٠)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١٧٠/١) القسم الثاني، والمساعد على تسهيل الفوائد (١١٩/١)، والطرز (٢/١٤٤).

(٣) المساعد على تسهيل الفوائد (١١٩/١).

(٤) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان (٤٨٩/١).

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (٤٩٣/٢) وانظر أيضاً: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين لابن الأنباري (٧٠٦-٧٠٧/٢).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٢/٢١٤)، (٦/٢٦٧)، (١١/١٤٦-١٤٧)، وتفسير القرطبي (٢٧٧/١)، (٢/٢٤١).

الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٥﴾. ((يجوز أن يكون "هم" زيادة يسميها البصريون فاصلة، ويسميها الكوفيون عماداً، و"المفلحون" خبر أولئك))^(١).

وهذا هو اختيار مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) كما هو مذكور في كتابه "مشكل إعراب القرآن"^(٢).

ومن التسميات التي ذكرت لهذا الضمير ما ذكره الأخفش (ت ٢١٥هـ) بأنه صلة وزائدة، يقول عند شرحه لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]: ((فنصب "الحق" لأن "هو" جعلت هاهنا صلة في الكلام زائدة توكيداً كزيادة "ما")^(٣).

والمتمأل في كلام أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) وأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) يجد أنهما يميلان إلى تسمية هذا الضمير بالصلة والزائد^(٤).

ومن التسميات - أيضاً - "الرابطة"، وهي تسمية استخدمها أهل المنطق كما ذكرها بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ)^(٥).

ويرى المستشرق (برجشتراسر) أنَّ استخدام ضمير الفصل للربط بين المبتدأ والخبر وسيلة قديمة شائعة في اللغات السامية، وربما تكون هذه الوسيلة أقدم من وسيلة الربط بأفعال الكينونة (كان وما معناها)^(٦).

ولكن كلامه ليس بجديد، فقد نبّه على هذا الملحظ قبله الأشموني (ت ٩٢٩هـ) في شرحه على ألفية ابن مالك^(٧).

(١) إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (١/١٨٤).

(٢) ينظر: (٢٠-٢١).

(٣) معاني القرآن للأخفش (٢/٥٤٣).

(٤) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/٢٧٤)، والمقتضب للمبرد (٤/١٠٣).

(٥) ينظر: عروس الأقراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (١/٣٣٢).

(٦) ينظر: التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر، ترجمة رمضان عبد التواب (ص: ١٣٦).

(٧) انظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/٢٥٥).

ويضيف عباس حسن إلى التسميات السابقة لضمير الفصل اسماً آخر، وهو تسميته "حرف الفصل"، ((ولا يحسن تسميته "ضمير الفصل" إلا مجازاً؛ بمراعاة شكله وصورته الحالية))^(١).

سبب تسميته فصلاً عند البصريين:

سَمَّى البصريون هذا الضمير فصلاً؛ لأنه يرفع الإبهام ويُزيل اللبس، فهو يوضح كون ما بعده خبراً لما قبله، لا تابعاً.

والتعليل بلفظ "التابع" أولى من تعليل بعضهم: سُمي فصلاً لكونه فَصَل بين الخبر والنعت^(٢).

يقول ابن هشام: ((ونكر التابع أولى من ذكر أكثرهم الصفة، لوقوع الفصل في نحو ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] والضمائر لا توصف))^(٣).

ويرى ابن مالك أنه سُمي فصلاً للفصل به بين شيئين لا يستغني أحدهما عن الآخر^(٤).

ويبدو لي - والله أعلم - أنَّ إطلاق التعليل بأنه يفصل بين الخبر والتابع فيه نظر؛ لأنه إذا وقع ضمير الفصل بين اسم الناسخ وخبره زال الالتباس بين الخبر والتابع، سواء أكان الناسخ حرفاً نحو قوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، أو كان فعلاً نحو قوله تعالى ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، فلو كان ما بعد الضمير تابعاً لكان لفظ "الفائزون" منصوباً، ولكن لما كان مرفوعاً تعين الإخبار سواء كان للضمير أو للناسخ.

(١) النحو الوافي لعباس حسن (١/٢٧٤-٢٤٨).

(٢) ينظر: الإنصاف لابن الأنباري (٢/٧٠٧)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/١٦٨ القسم الثاني).

(٣) مغني اللبيب (٢/٤٩٦).

(٤) ينظر: شرح التسهيل (١/١٨٦).

وهكذا فإن نصب "الرقيب" يعني الإخبار عن الفعل ومنع الإخبار عن الضمير.

فالتعليل المذكور ينطبق عند ما يقع ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر فحسب.

يقول ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) في معرض اعتراضه على هذا الإطلاق: ((فإن قيل: إذا كان الغرض بالفصل إنما هو الفرق بين النعت والخبر فما باله جاء فيما لا لبس فيه نحو قوله تعالى ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، و ﴿إِنْ تَرَنِ أَنْأَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]؟ ولا لبس؛ ذلك لأنَّ المضمرات لا توصف))^(١).

سبب تسميته عماداً أو دعامة عند الكوفيين :

وأما تسمية الكوفيين لهذا الضمير بالعماد: فلأنه يعتمد عليه في الوصول إلى الفائدة، وتأدية المعنى، فهو كالعماد في البيت الحافظ للسقف من السقوط^(٢).

وتسميته دعامة، ((لأنه يدعم به الكلام، أي يقوى به ويؤكد، والتأكيد من فوائد مجيئه))^(٣).

وكان هؤلاء نظروا إلى بعض وظائفه وفوائده ودوره المعنوي في الكلام كما سيأتي، فسمّوه دعامة لذلك.

ولعل من المفيد: أن نشير هنا إلى أن الفراء (ت ٢٠٧هـ) قد أطلق مصطلح "العماد" على ضمير الفصل وعلى ضمير الشأن أيضاً^(٤)؛ ذلك أن مفهوم

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ١١٠).

(٢) ينظر: شرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/ ١٧٠ القسم الثاني)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٩٦)، والمساعد على تسهيل الفوائد (١/ ١١٩).

(٣) همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي (١/ ٦٨).

(٤) ضمير الشأن: هو الضمير الذي لم يتقدمه في الذكر ما يعود عليه، ويقال له أيضاً ضمير القصة، والضمير المجهول، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

انظر: شرح المفصل (٣/ ١١٤)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/ ١٧٨) القسم الثاني).

"العماد" عنده أوسع من المفهوم الذي يقصر عليه أغلب الكوفيين - وهو التمييز بين الخبر والتابع -، ففي بيانه معنى قوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] يقول الفراء: ((الهاء عماد توقى بها "إن"، ويجوز مكانها "إنه"، وكذلك هي قراءة عبد الله))^(١).

الراجع من التسميات :

رجح كثير من أهل العلم اصطلاح البصريين، وهو التسمية بالفصل ؛ ذلك أنَّ استعمال المصطلح السائد المشهور أولى من العدول إلى مصطلحات أخرى لا تُعطي المعنى الدقيق للكلمة.

يقول ابن الحاجب: ((وتسمية أهل البصرة له فصلاً أقرب إلى الاصطلاح في أكثر الألفاظ، ولما كان المعنى في هذه الألفاظ الفصل، كان تسميتها فصلاً أولى من تسمية الكوفيين لها عماداً...))^(٢).

والكوفيون كما يقرره ابن الحاجب سمّوه باسم ما يلزمه ويؤدي إلى معناه، ومن هنا كانت تسمية البصريين أظهر.

أما الدماميني (ت ٨٢٧هـ) فيعلل لترجيحه بأنَّ التسمية بالفصل أخص، وإذا كان الفصل أخص، فإنَّ تسمية البصريين أولى لهذه العلة ؛ لأنَّ الأخص يكون مشتملاً على الأعم^(٣).

المبحث الثالث

ضمير الفصل بين الاسمية والحرف

مما هو معلوم باتفاق أهل العلم أنَّ هذه الصيغة الدالة على التكلم نحو: أنا، أو مخاطب نحو: أنت، أو غائب نحو: هو من الضمائر، ولكن وقع الاختلاف

(١) معاني القرآن للفراء (٢/٢٨٨).

(٢) الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب (١/٤٧١).

(٣) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد للدماميني (٢/١٢٨) بتصرف.

عندما نقلت هذه الضمائر من وظيفتها في الابتداء إلى وظيفة أخرى وهي " الفصل "، فهل هي باقية على أصلها فتكون من الأسماء؟ أم أنّ هذا الأصل قد تغيّر وصار من الحروف؟

هذا ما سنتناوله في السطور التالية :

انقسم أهل العلم حول هذه المسألة إلى فريقين، ولكل فريق رأيه وحججه :

الفريق الأول: يرى أنّ هذه الضمائر باقية على اسميتها؛ لدالتها على مسمى، وهو قولٌ منسوبٌ للخليل بن أحمد كما ذكره غير واحد من العلماء^(١).

الفريق الثاني: ذهب إلى القول بحرفية هذه الضمائر جمهور النحويين^(٢)، فهم يرون أنّ هذه الضمائر جاءت لمعنى في غيرها، وهو الفصل بين ما هو خبر، وما هو تابع، فاشتدَّ شبهها بالحرف، يقول الرضى معللاً خلوص هذه الضمائر للحرفية مثل كاف الخطاب نحو قولك : ذلك، وأولئك : ((لما كان الغرض المهم من الإتيان بالفصل ما ذكرنا، أي دفع التباس الخبر الذي بعده بالوصف، وهذا هو معنى الحرف ؛ أعني إفادة المعنى في غيره، صار حرفاً وانخلع عنه لباس الاسمية، فلزم صيغة معينة، أي صيغة الضمير المرفوع))^(٣).

ومنشأ هذا الاختلاف بين الفريقين يرجع إلى أمرين :

الأمر الأول: اختلافهم في محل هذه الضمائر، ألها محلٌّ من الإعراب أم

لا ؟

الأمر الثاني: اختلافهم في الوظيفة الحقيقية لهذا الضمير.

(١) ينظر: ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي (١/٤٨٩)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٧)، والمساعد على تسهيل الفوائد (١/١٢٠).

(٢) ينظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك (١/٢٤٤-٢٤٥)، ورسف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ص: ١٢٨)، وارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي (١/٤٨٩)، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ص: ٣٥٠-٣٥١)، وهمع الهوامع (١/٦٨).

(٣) شرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/١٧٤ القسم الثاني).

القول الراجح :

الراجح والأقوى - في نظري - هو اعتبار ضمير الفصل حرفاً لا يعمل شيئاً، ولا يؤثر في غيره تأثيراً إعرابياً، ولكننا نجزم أنَّ له فوائد ووظائف اقتضت وجوده كما سنبينه في الفصل الثاني مع الأمثلة التطبيقية.

يقول ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) في ترجيحه لهذا القول: ((ومن النحويين من زعم أنها أسماء، ولها موضع من الإعراب، وذلك فاسد، والصحيح: أنها حروف؛ لأن أسماء لا موضع لها من الإعراب لم توجد في كلامهم))^(١).

المبحث الرابع

ضمير الفصل بين الإعراب وعدمه

علمنا فيما مضى خلاف أهل العلم في اسمية ضمير الفصل أو حرفيته، وقد يكون من البدهي: أن لا يكون لهذا الضمير محلٌّ من الإعراب عند من يقول بحرفيته.

أما القائلون باسميته فاختلفوا إلى فريقين :

الفريق الأول: ذهب هذا الفريق إلى أنَّه لا محل له من الإعراب، وهو رأي جمهور البصريين^(٢).

أدلة هذا الفريق :

١ - إنَّ مجيء هذا الضمير إنما كان لغرض وهو الإعلام بأنَّ ما بعده خبر لا تابع، فأشبهه الحرف؛ إذ لم يجأ به إلا لمعنى في غيره، والحرف لا موضع له من الإعراب^(٣).

(١) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور (٢/٦٥ - ٦٦).

(٢) انظر: الكتاب (١/٣٩٧)، والإنصاف (٢/٧٠٧)، وشرح المفصل (٣/١١٣)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/٢٤٥)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/ ١٧٦ القسم الثاني)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٦ - ٤٩٧)، وعروس الأفراح (١/٣٣٤).

(٣) ينظر: الإنصاف (٢/٧٠٧)، والهمع (١/٦٨).

٢ - إِنَّ عدم تغير ضمير الفصل لتغير ما قبله دليلٌ على أن لا موضع له من الإعراب، ألا ترى نحو قوله تعالى ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، وقوله تعالى ﴿وَمَا تُقِيمُوا لِلنَفْسِ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، فلو كان له موضع من الإعراب لكان لفظ "إياي" أولى من "أنا" في الآية الأولى، ولكان لفظ "إياه" أولى من "هو" في الآية الثانية.

٣ - إِنَّ خلو ضمير الفصل من الإعراب أمرٌ غير مستنكر وله نظائره، ومنها "أل" الموصولة، والكاف في "ذلك"، و "أولئك"، ونحو ذلك.

الفريق الثاني: ذهب الكوفيون إلى أن ضمير النصل له محل من الإعراب، ولكنهم اختلفوا في محله، فالفراء يجعل محله محل ما قبله، ويرى الكسائي (ت ١٨٩هـ) أن محله محل ما بعده^(١).

وبناء على ما تقدم من قولي الفراء والكسائي تظهر ثمرة الخلاف في نحو قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَهُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فعلى قول الفراء يكون محل الضمير رفعاً بالتوكيد، وعلى قول الكسائي يكون محله نصباً.

دليل هذا الفريق :

ضمير الفصل نوع من أنواع الضمائر، والضمير له محل من الإعراب عند التركيب، فوجب عندئذ استصحاب حكمه^(٢).

(١) ينظر: الإنصاف (٧٠٦/٢)، وشرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١٧٦/١) القسم الثاني، والجنى الداني للمرادي (ص: ٣٥٠ - ٣٥١)، ومغني اللبيب (٤٩٧/٢)، وعروس الأفراح (٣٣٤/١).

(٢) ينظر: شرح ألفية ابن معطي (٦٧٠/١).

القول الراجح :

بعد عرض أدلة الفريقين يبدو أنَّ القول الراجح هو رأي الفريق الأول، وذلك :

- ١ - لقوة أدلة هذا الفريق.
- ٢ - ولأنَّ الاسم الذي بعد ضمير الفصل يُعرب على حسب حاجة ما قبله من غير التفات إليه، وكأنَّه غير موجود^(١).
- ٣ - إنَّ عدم إعراب ضمير الفصل هو الأكثر شيوعاً في اللهجات العربية.
- ٤ - إهمال ضمير الفصل وعدم إعرابه ورد في قراءات جمهور القراء السبعة، أما إعماله فقد ورد في قراءات شاذة، ومما قرئ في ذلك :
- قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قرأ الأعمش (ت١٤٨هـ) وزيد بن علي (ت٣٥٨هـ) (الحقُّ) بالرفع^(٢).
- قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، قرأ عبد الله بن مسعود (الظالمون) بالرفع^(٣).
- قوله تعالى ﴿وَمَا نُفْلِحُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ جَدُّهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [الزمر: ٢٠]، قرأ أبو السمال^(٤) وابن السميع (ت٢١٣هـ) (خيرٌ وأعظمٌ) بالرفع^(٥).

(١) ينظر: النحو الوافي (١/٢٤٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/٤٨٨).

(٣) ينظر: مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه (ص: ١٣٦)، وإعراب القرآن للنحاس (١٢١/٤).

(٤) قال الذهبي في ترجمته: ((أخذ عنه الحروف أبو زيد الأنصاري النحوي، وفي ذلك أحرف شاذة...ولا أعلم متى توفي، وكان معاصراً للكسائي، فمن اطلع على شيء من أخباره فليقد كتابنا)) طبقات القراء (١/١٩٣).

(٥) ينظر: مختصر في شواذ القراءات (ص: ١٦٤)، والبحر المحيط (٨/٣٦٧).
ذكر الذهبي في ترجمة ابن السميع أنَّ له قراءةً معروفة، وفيها ما ينكر ويشذ، وإسنادها مظلم. انظر: طبقات القراء (١/١٩٥).

المبحث الخامس

شروط ضمير الفصل

أورد ابن هشام في مغني اللبيب ستة شروط لضمير الفصل، وهي موزعة على النحو التالي^(١):

أولاً: شرطان فيما قبله.

ثانياً: شرطان فيما بعده.

ثالثاً: شرطان له في نفسه.

وإليك تفصيل القول في تلك الشروط.

أولاً - شروطه فيما قبله :

يشترط فيما قبل ضمير الفصل شرطان، وهما :

١ - أن يكون مبتدأ في الحال، كقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، أو الأصل كاسم "كان وأخواتها"، واسم "إن وأخواتها"، ومفعول "ظننت وأخواتها"، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

٢ - أن يكون معرفة كالأمثلة السابقة، ونحو قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وأجاز بعض الكوفيين كونه نكرة، وحملوا على ذلك قوله تعالى ﴿أَن

(١) ينظر مغني اللبيب (٢/٤٩٣-٤٩٥).

تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴿٩٢﴾ [النحل: ٩٢]، فأعربوا وقَدَّروا "أربى" منصوباً^(١).

ثانياً - شروطه فيما بعده :

يشترط فيما بعد ضمير الفصل شرطان هما :

- ١ - أن يكون خبراً لمبتدأ في الحال أو الأصل، وسبقت الأمثلة في ذلك.
 - ٢ - أن يكون معرفةً نحو الأمثلة السابقة، أو ما أشبه المعرفة في أنه لا يقبل "أل"، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، فقوله: "أقل" أفعل التفضيل، وهو يشبه المعرفة في أنه مع "من" لا يجوز إضافته، ولا يجوز دخول "أل" عليه^(٢).
- وقرأ عيسى بن عمر الهمداني (ت ١٥٦هـ) برفع (أقل) ولا شاهد لضمير الفصل في هذه القراءة الشاذة^(٣)، بل يكون (أنا) مبتدأ، وخبره (أقل)، وفي ذلك يقول الفراء: (("أنا" إذا نصبت "أقل" عماد، وإذا رفعت "أقل" فهي اسم، والقراءة بهما جائزة))^(٤).

ثالثاً - شروطه في نفسه :

يشترط في نفس ضمير الفصل شرطان، هما :

- ١ - كونه أحد ضمائر الرفع المنفصلة أي صيغة المرفوع، مثل : هو، هم، أنا، أنت، نحن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١١٣/٢)، ومغني اللبيب (٤٩٤/٢).
 (٢) ينظر: الكتاب (٣٩٢/٢)، وشرح المفصل (١١١-١١٢)، وتعليق الفرائد (٢/١٣٠).
 (٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٢٩/٦).
 (٤) معاني القرآن للفراء (١٤٥/٢).

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام: ما يقع أحياناً من الخلط والالتباس بين ضمير الفصل والضمير المرفوع المنفصل، وما العلاقة القائمة بينهما ؟

والجواب على هذا السؤال من وجهين :

الوجه الأول : تسمية " ضمير الفصل " تسمية بوظيفته وموقعه، أما الضمير المنفصل فهي تسمية بالعلامة ؛ إذ لا يتصل بالفعل وإنما يقع منفصلاً عنه.

الوجه الثاني : أما العلاقة بين الضميرين فهي علاقة نقل كما سبق، نقلت الضمائر المنفصلة المرفوعة من وظيفتها في الابتداء إلى وظيفة أخرى هي الفصل.

وثمة سؤال يطرح نفسه، وهو : لماذا اختص المرفوع المنفصل بالفصل دون غيره من الضمائر ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول : إنَّ اختصاص المرفوع المنفصل بالفصل ؛ لما فيه من التوكيد، ألا ترى كيف أفاد التوكيد نحو قوله تعالى: ﴿وَبَكَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وفي ذلك يقول ابن مالك^(١):

وإن تُؤكِّد الضمير المتصل بالنفس والعين فبعد المنفصل
عَنِيتُ ذا الرفع وأكَّدوا بما سواهما والقيد لن يُلتزمَا
٢ - أن يكون مطابقاً للاسم الذي قبله، في التكلم والخطاب والغيبة، وفي الإفراد والتثنية والجمع، وفي التذكير والتأنيث، يقول المالقي (ت٧٠٢هـ):
(واعلم أنَّ هذه الألفاظ - أي ضمائر الفصل - تجري على ما قبلها من الإفراد أو التثنية أو الجمع، أو التذكير أو التأنيث، أو الحضور (...))^(٢).

(١) ألفية ابن مالك في النحو والصرف (ص: ٩٨).

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ص: ١٣٠).

وإليك الأمثلة الدالة على ذلك :

المطابقة في التكلم والخطاب والغيبة :

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ
الْوَرِثَينِ﴾ [القصص: ٥٨]، فقد جاء الفصل هنا مطابقاً لما قبله في التكلم،
ومثال ما جاء فيه الفصل مطابقاً لما قبله في الخطاب قوله تعالى: ﴿كُنْتَ أَنْتَ
الْقَرِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾
[طه: ٦٨]، وأما المطابقة بالغيب فنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾
[الحشر: ٢٠].

المطابقة في الإفراد والتثنية والجمع :

من أمثلة ما جاء فيه الفصل مطابقاً لما قبله في الإفراد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
[الإسراء: ١]، وأما مطابقة الفصل بصيغة المثنى فإنها لم ترد في القرآن
الكريم.

ومثال ما جاء فيه الفصل مطابقاً لما قبله في الجمع قوله تعالى: ﴿أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وقوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[الأنبياء: ٦٤].

المطابقة في التذكير والتأنيث :

فمن أمثلة التذكير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:
٣]، وقوله: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].
وأما التأنيث فمن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ
قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، وقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام: أن عدم تحقيق صورة المطابقة قد

تؤدي إلى الخروج عن باب ضمير الفصل إلى أبواب أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] نجد أنَّ صورة التطابق لم تتحقق في هذا التركيب؛ ولهذا فإنَّ الهاء في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن والقصة.

هذه مقدمات موجزة، وإطالة سريعة على بعض مسائل ضمير الفصل، ولا أريد أن أطيل؛ إذ إنَّ محدودية البحث تلزمني بالاكْتفاء بما تقدم.

الفصل الثاني

وظائف ضمير الفصل في القرآن الكريم

توطئة :

يستفاد من كلام المفسرين والبلاغيين واللغويين أن لضمير الفصل وظائف وأغراضاً يحققها عند الإتيان به، وبعد التأمل والاستقراء يمكن إجمال تلك الوظائف في الأمور التالية :

الوظيفة الأولى : التوكيد والتقوية، ولها دلالتها المعنوية، قال أبو حيان : ((فائدة الفصل عند الجمهور التأكيد))^(١).

الوظيفة الثانية : القصر والحصص والاختصاص، وهي معنوية أيضاً، واهتم بها البلاغيون^(٢).

الوظيفة الثالثة : التمييز بين الخبر والتابع، وهي لفظية، واقتصر على ذكرها أكثر النحاة^(٣).

وجمع الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) هذه الوظائف المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فقال : ((وفائده الدلالة على أنَّ الوارد بعده خبرٌ لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أنَّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره))^(٤).

وهكذا نستطيع أن نقول: إنَّ وظائف ضمير الفصل قد اكتملت رؤيتها عند الزمخشري، وهو أمر أثنى عليه ابن هشام، وعاب على النحاة اقتصارهم على وظيفة لفظية واحدة، وهي التمييز بين الخبر والتابع^(٥).

(١) ارتشاف الضرب (١/٤٩٥).

(٢) انظر: دلائل الإعجاز (ص: ١٧٩)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٦).

(٣) انظر: مغني اللبيب (٢/٤٩٦)، وعروس الأفراح (١/٣٣٣).

(٤) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (١/١٤٦).

(٥) انظر: مغني اللبيب (٢/٤٩٦).

وإليك تفصيل هذا الإجمال على النحو التالي :

المبحث الأول وظيفة التوكيد والتقوية

قبل البدء في عرض وظيفة التوكيد والتقوية لضمير الفصل لعل من الأجدر أن نذكر تعريف التوكيد لغة واصطلاحاً، وذلك على النحو الآتي :

المطلب الأول التعريف اللغوي للتوكيد

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : ((الواو والكاف والذال : كلمة تدل على شد وإحكام...))^(١)، والهمزة فيه (أكد) مبدلة من واو.

ويقول الفيروز آبادي (ت ٨١٦هـ) : ((وَكَدَ يَكْدُ وَكُوداً : أقام، وقصد...وَكَدَ الرَّحْلُ : شَدَّهُ))^(٢).

من خلال هذه المعاني يتبين لنا أنَّ من دلالات هذه المادة: ما يفيد معنى التقوية والإحكام.

ومما جاء في التنزيل: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] أي تقويتها وإحكامها.

المطلب الثاني التعريف الاصطلاحي للتوكيد

المتأمل في التعريف الاصطلاحي للتوكيد يجد التناسب التام بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فمن معانيه الاصطلاحية: ما ذكره يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) بقوله : ((تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره))^(٣).

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١٣٨/٦).

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ٤١٧).

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي (١٧٦/٢).

وعرفه أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) بقوله: ((هو أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته))^(١).

وللتوكيد عند النحويين والبلاغيين أنواع وصور وأدوات وأساليب ليس هذا المقام مقام تفصيلها، والذي يعنيها - هنا - هو أن نعلم أن ضمير الفصل وإن لم يكن ضمن أساليب التوكيد اللفظي أو التوكيد المعنوي بالمفهوم النحوي إلا أنه جزء من أسلوب التوكيد بمفهومه الواسع وأهم وظائفه المعنوية، فثمة أساليب كثيرة تفيد التأكيد مع ما تفيد من أسرار ومعطيات بلاغية كالقسم، و "إن"، ولام الابتداء، والاشتغال.

ومن أجل إفادة ضمير الفصل التأكيد سمّاه بعض الكوفيين كما سبق دعامة، كما لا يجمع بينه وبين ألفاظ التوكيد، فلا يقال على سبيل المثال: "أولئك أنفسهم هم المفلحون"، فقد استغنوا عنه بالتوكيد، وهذا الاستغناء دليل على أنه يجيء ليؤدي تلك الوظيفة^(٢).

ومن المفيد في هذا المقام كذلك: أن نذكر أن ابن الحاجب أنكر إفادة ضمير الفصل للتوكيد، ومن كلامه: ((لا جائز أن يكون تأكيداً؛ لأنه لو كان تأكيداً لم يخل إما أن يكون لفظياً، وإما أن يكون معنوياً، لا جائز أن يكون لفظياً؛ لأنّ اللفظي إعادة اللفظ الأول بعينه إن كان ظاهراً ... ولا جائز أن يكون معنوياً؛ لأنّ المعنوي بألفاظ تُحفظ ولا يقاس عليها))^(٣).

وابن الحاجب صنيعة مستغرب، وهو محجوج بما ذكرناه آنفاً من أن ضمير الفصل يفيد التوكيد بالمفهوم اللغوي الواسع، وليس بالضرورة أن يكون توكيداً لفظياً أو معنوياً.

يقول بهاء الدين السبكي في رده على كلام ابن الحاجب: ((وأما قوله: إنه ليس تأكيداً، ففيه نظر، ولا يسلم أن التأكيد منحصر فيما ذكره؛ لأنّ التأكيد

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٦٩).

(٢) ينظر: مغني اللبيب (٢/٤٩٦)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/٥٠٦).

(٣) الأمالي النحوية لابن الحاجب (٤/١٠١).

الذي ذكره هو التوكيد الذي تكلم عليه النحاة في باب التابع، ولكنه تأكيد باصطلاح الأصوليين وأهل المعاني...وكأنه توهم أن المراد: أن الفصل تأكيد للمسند إليه، وليس كذلك، بل هو تأكيد للجملة^(١).

ويمكن أن يقال لابن الحاجب أيضاً - من باب التنزل على مذهبه -: إن ضمير الفصل حينما يتوسط بين المبتدأ والخبر لتأكيد الإسناد، أو ما أصله كذلك، فهو بمثابة التكرار اللفظي، وقد أشار إلى هذا الملحظ النجاشي، ففي معرض كلامه عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] يقول: ((... "هم" دخلت فصلاً، وإن شئت كانت تكريراً للاسم))^(٢).

وبما أن أمثلة ضمير الفصل المفيدة للتوكيد مستفيضة في القرآن الكريم وأكثر من أن تحصى فإنني أثرت إعطاء مزيد من التحليل لضمير الفصل الواقع في سياق آيات المتشابه اللفظي؛ وذلك لكون الأسرار البلاغية واللمسات الإعجازية تبرزان أكثر في تلك السياقات.

ضمير الفصل وآيات المتشابه اللفظي^(٣) في القرآن الكريم: أمثلة تطبيقية.

في القرآن الكريم آيات متشابهة متوائمة أكدت بضمير الفصل في موطن، ولم تؤكد في موطن آخر شبيه به فما السبب؟

الجواب: أن السياق - أحياناً - هو الذي يحدد وجود الفصل في مقام وخلوه منه في مقام آخر.

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (١/٣٣٤).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٧٤).

(٣) تقييد المتشابه - هنا - بوصف اللفظي احترازاً من المتشابه المقابل للمحكم، ويقال له: المتشابه المعنوي، فذلك المتشابه ليس مجال بحثنا.

ومما هو معلوم عند اللغويين والمفسرين والأصوليين: أنَّ للسياق دوراً كبيراً في تحديد دلالات النص، والوقوف على المعاني المقصودة دون غيرها^(١).

فمن المقولات المشهورة عندهم: "لكل مقام مقال"^(٢)، و"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"^(٣).

كما أنَّ المتأمل في التوكيد القرآني عموماً يجد أنَّ القرآن الكريم قد راعى اختيار أساليب التوكيد أدق المراعاة، فهو في غاية الدقة في انتقاء الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة^(٤).

وكأنَّ القارئ يشعر أنَّ هذا المكان، إنَّما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأنَّ كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها.

وقد اعتنت مؤلفات توجيه المتشابه اللفظي في تلمس تلك الأسرار البلاغية وإبرازها، ولعل من أبرزها: كتاب درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (ت ٥٠٥هـ)، وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وغيرها.

وها هي تلك الأمثلة الدالة على أسرار آيات المتشابه اللفظي مع ضمير الفصل:

(١) لابن القيم - رحمه الله - كلام نفيس في أثر السياق في إبراز المعاني حيث يقول: ((السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... وتنوع الدلالة)) بدائع الفوائد لابن القيم (٨١٥/٤).

ومن أوضح الأمثلة الدالة على أثر السياق في تحديد الدلالة: المصادر الميمية لأسماء الزمان والمكان التي تصاغ من الثلاثي المجرد على وزن (مَفْعَل) بفتح العين، نحو: مَذْهَبٌ، وَمَخْرَجٌ، وَمَشْرَبٌ، فهذه الأمثلة ونحوها لا يمكن الوقوف على الفرق بين اسم الزمان واسم المكان إلا بسياقها الذي يحدد المراد، ويعين المقصود.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (١٣٦/١).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ص: ٨٠).

(٤) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص: ١٢٨).

المثال الأول: قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله في سورة فصلت ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فقد ورد ضمير الفصل في آية فصلت دون آية الأعراف فما السر في ذلك ؟

التحقيق: أنَّ سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به، فالقرآن الكريم يستعمل ضمير الفصل حسبما يقتضيه السياق والذوق اللغوي.

يذكر الخطيب الإسكافي أنَّ آية فصلت جاءت بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله، وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وتأمل قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وأما آية الأعراف فقد سبقها الأمر بالإعراض عن الجاهلين ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة فصلت، ولهذا أكد وعرف في سورة فصلت فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وترك التوكيد والتعريف في سورة الأعراف^(١).

وأما القاضي زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) فوجه بين الآيتين بقوله: ((قاله هنا - أي سورة فصلت - بزيادة "هو" و "أل"، وفي الأعراف بدونها؛ لأنَّ ما هنا متصلٌ بمؤكد بالتكرار وبالحرص، فناسب التأكيد بما ذكر، وما في الأعراف خلى عن ذلك فجرى على القياس من كون المسند إليه معرفة، والمسند نكرة))^(٢).

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ص: ٤١٩ - ٤٢٠).

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للقاضي زكريا الأنصاري (ص: ٥٣٩).

وبعد التأمل في السياق السابق واللاحق للآيتين وجدت توجيهها آخر وهو:
 أَنَّ آية الأعراف لم يتقدمها من مخلوقات الله ما هو موصوف بصفة السمع
 والعلم، بل تقدمها ذكر الأصنام التي لا تسمع ولا تعلم، قال تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ
 مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۖ وَلَا يَسْتَبِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ
 يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وتأمل كذلك قول الله عز وجل حينما نفى عنهم السمع والبصر وآلة
 المشي وآلة البطش ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۚ أَمْ
 لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
 كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

أما آية فصلت فقد تقدّم قبلها خطابات تحكي عن عالمي الجن والإنس، قال
 تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
 نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ [فصلت: ٢٩]، وهؤلاء
 المذكورون المضللون من عالمي الجن والإنس موصوفون بالسمع والبصر
 وينسب إليهم العلم، ولهذا أكد بضمير الفصل في آية فصلت، وجاء في الخبر
 والنعت المخلصين بـ "أل" الاستغرافية ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وكأنَّ السياق
 يقول: لا أحد غيره السميع، ولا أحد غيره العليم.

ما أروع هذا الإعجاز، وتلكم الأسرار البيانية في كل كلمة من كلمات هذا
 القرآن.

المثال الثاني: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
 الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله في سورة لقمان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٢].

فالتشابه بين الآيتين واضح إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج

﴿وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، وخلوه منه في آية لقمان
﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

والسبب في ذلك كما يوجهه الخطيب الإسكافي أنَّ سياق الآيات التي قبل
آية الحج قد أكد بعدة مؤكّات مترادفة، فلما بني السياق على ذلك أكد هذه الآية
بضمير الفصل، أما آية لقمان فليس الأمر كذلك، فلم يحتج إلى التوكيد بضمير
الفصل.

وفي ذلك يقول - رحمه الله - : ((والجواب أنَّ الأولى وقعت في مكان
تقدمت فيه توكيدات مترادفة في ستة مواضع وهي: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾
فاللام والنون مؤكّتان، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج:
٥٨]، واللام مع "هو" مؤكّدان، وبعده: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَهُ﴾،
واللام والنون سبيلهما تلك السبيل، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾
[الحج: ٥٩]، اللام التي في خبر إنَّ كذلك، وبعده: ﴿لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]، فلما ترادفت التوكيدات جاء في هذا
الموضع مؤكّداً بقوله: (هو) في الآية ... وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان؛
لأنه لم تتقدمه التوكيدات التي تستتبع أمثالها كما تقدّمت في الأولى))^(١).

وللألووسي (ت ١٢٧٠هـ) - رحمه الله - توجيه آخر في دلالة زيادة
ضمير الفصل في سورة الحج؛ لما أنَّ الحطَّ على المشركين وآلهتهم في هذه
السورة دون الحطِّ عليهم في سورة لقمان^(٢).

ومعنى كلامه - رحمه الله - أنَّ فكرة بطلان الشركاء وذكر آلهتهم
المزعومة تكرر إيرادها في سورة الحج، كما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢)

(١) المصدر السابق (ص: ١٧٣) وانظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص:
٤٣٥-٤٣٦).

(٢) انظر: روح المعاني (٢١/١٠٤).

يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿[الحج: ١٢-١٣]﴾، وكقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وجاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣]، كل ذلك استدعى وناسب التأكيد بضمير الفصل.

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أنَّ السياق في آية الحج يركز على توضيح ثنائية الحق والباطل وإبرازها، ذلك الصراع العنيف مع الذين يعاجزون ويعاندون الحق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١]، ولا يوجد مثل هذا الصراع في سورة لقمان، فلم يقتض السياق ما اقتضاه في آية الحج من التوكيد^(١).

المثال الثالث: قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقوله في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وقوله في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤].

يلاحظ هنا زيادة ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، والسبب في ذلك أنَّ آية الزخرف قد قيلت في سياق عبادة عيسى واتخاذها إلهاً من دون الله، بخلاف الآيتين الأخريين، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له.

(١) ينظر: على طريق التفسير البياني للدكتور فاضل صالح السامرائي (٢/ ٣٦٩- ٣٧٠).

يقول ابن الزبير الغرناطي في "ملاك التأويل" : ((وأما زيادة الضمير
الفصلي في سورة الزخرف فيحرز بمفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم
في الآية قبله ..فلما كان قد تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم :
﴿إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨] يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به
من قوله تعالى حاكياً عن المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ...
فأحرز "هو" هذا المعنى، ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم
ما ورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرنا))^(١).

وللخطيب الإسكافي توجيه آخر يختلف عن توجيه ابن الزبير، فهو يوجّه
سبب الحذف في آيتي آل عمران ومريم، أن آية آل عمران وقعت بعد عشر آيات
نزلت في قصة مريم وعيسى عليهما السلام فاستغنى عن التأكيد بما تقدّم من
الآيات الدالة على أن الله سبحانه ربه وخالقه، لا أبوه ووالده كما زعمت
النصارى، وهكذا الحال في سورة مريم وقعت بعد عشرين آية من قصة مريم
عليها السلام، فأغنى ذلك عن ذكر ضمير الفصل، وأما آية الزخرف فلم يتقدّمها
مثل ذلك، فناسب تأكيد إثبات الربوبية ونفي الأبوة عن الله تعالى^(٢).

ويبدو بعد الموازنة بين التوجيهين أن توجيه ابن الزبير أقرب إلى
الصواب؛ ذلك أن مجموع الآيات التي وردت في قصة عيسى عليه السلام في
سورة الزخرف ثماني آيات، وما جاء في آل عمران عشر آيات، فالعدد متقارب،
وهو أمر يدل على أن توجيه الخطيب الإسكافي غير دقيق وغير مطرد.

ومما يؤيد - أيضاً - رأي ابن الزبير: ما جاء في سياق آيات الزخرف في
قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]، فهناك ادعاءات ومزاعم قد
ظهرت كقولهم: عزيز ابن الله، فاحتاج الأمر إلى إزالة تلك الشبهة، ورد تلك

(١) ملاك التأويل (١/٣٠٨ - ٣٠٩).

(٢) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ص: ٣٦).

المزاعم، وتأكيد وحدانية الله وتفرد به بالعبادة، وهذا ما أفاد به ضمير الفصل في آية الزخرف.

يقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ) - رحمه الله - عند تفسيره لآية الزخرف: ((وضمير الفصل أفاد القصر، أي الله ربي لا غيره، وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذي أرسل إليهم عيسى موحدّين، لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا: عزيز ابن الله))^(١).

ومن اللطائف البلاغية المذكورة هنا - أيضاً - تكرار لفظ ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فهو أبلغ في التزام العبودية من قوله "ربنا"، وأدل على التبرّي من الربوبية^(٢).

وانظر - كذلك - إلى سر تقديم نفس عيسى على قومه في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، ((لقصّد سد ذرائع الغلو في تقدّيس عيسى، وذلك من معجزاته، لأنّ الله علم أنّه ستغلو فيه فرق من أتباعه فيزعمون بُنوّته من الله على الحقيقة))^(٣).

ما أعظم كلام الله وأبلغه ! وأنى لكلام بشر أن يسمو فيداني كلامه المعجز !

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي السَّابِقِ الْأَوَّلِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تأمل كيف جاء في الآية الثانية بضمير الفصل دون الآية الأولى، والسر

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٤٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢/٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/٢٤٨).

البلاغي في ذلك أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها، فلما زاد ذلك زاد في تأكيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن الجملة الفعلية ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فناسب كل ذلك تأكيد الفوز وعظمه^(١).

أرأيت إلى هذا البناء المحكم، وهذا النظم الرباني البديع، وتلك الدقة المتناهية المتلائمة مع السياق !

والتعبير بصيغة التفضيل في قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ ولم يذكر معه المُفْضَل عليه لظهوره من المقام كما سبق تقديره آنفاً، وفي ذلك دليل على أن السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية^(٢).

ولقد تأملت ضمير الفصل وتعبير هذا الوصف ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ في آيات الكتاب العزيز، فوجدت أنه ذكر في سبعة مواضع، وحذف منه في ستة مواضع، ويلاحظ أن الآيات التي جاء التركيب مؤكداً بضمير الفصل سبقت بما يشعر بادعاء طرف آخر الوصول إلى الفوز، أو توهم أن ما يطلبه فوز وليس بفوز في الحقيقة، فالآية التي نحن بصدد الحديث عنها سبقتها آيات تتحدث عن المنافقين ومصيرهم ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

ومن تلك الآيات: قوله تعالى في سورة التوبة أيضاً:

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٦٤-٢٦٥)، والتعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي (ص: ١٤٨-١٤٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٦٥).

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١١١]، فقد سبق هذه الآية ذكر بعض أعمال المنافقين كبناء مسجد الضرار، وكانوا يريدون إيهام المسلمين أنهم يريدون الخير والفوز، فجاءت الآية مبينة الفوز الحقيقي الذي لا رياء فيه ولا سمعة، وجاء الجزاء مؤكداً بتوسيط ضمير الفصل ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

- وفي سورة يونس ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بَدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

- وفي سورة الصافات تعقيباً على جزاء عباد الله المخلصين ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٦٠].

- ومما جاء على لسان الملائكة في دعائهم للمؤمنين في سورة غافر ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

- وجاء في سورة الحديد في ذكر مآل المؤمنين والمؤمنات ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ نَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

كل هذه الآيات جاء ضمير الفصل فيها ليؤكد التناسب التام بين حقيقة الجزاء والتعبير بالفوز العظيم.

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) [الشعراء: ٧٨-٨١].

في هذه الآيات قد ظهر ضمير الفصل مع أفعال الهداية، والإطعام،

والإسقاء، والشفاء، ولم يُذكر هذا الضمير مع الأفعال الثلاثة الأخرى وهي:
[خلقني، يمينني، يحيين].

والسر البلاغي في هذا الذكر وهذا الحذف هو أننا نجد ضمير الفصل حيث يتوهم في الفعل شراكة كما في الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء، فقد يدّعي المخلوق أنه يفعلها، ولهذا جاء التعبير القرآني بضمير الفصل مع تلك الأفعال ليؤكد نسبتها إلى الله تعالى وتخصيصه بها.

وأما أفعال الخلق والإماتة والإحياء فلا يتوهم فيها الشراكة، ولا يمكن أن يدّعيها أحد لنفسه، بل هي خاصة بالله تعالى دون منازع، ولهذا لم تكن هناك ضرورة للإتيان بضمير الفصل^(١).

وهنا يظهر كذب ووهم وادّعاء نمرود الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربّه حينما قال: ﴿أَنَا أَحْيَـ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وشتان بين ترك حياة إنسان والإحياء، وما بين القتل والإماتة !

يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - (ت ١٤١٨هـ)^(٢): ((... ولو أنّ الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة [هو] مع كل الأفعال المذكورة في الآيات، أو حذف كلمة [هو] من كل الأفعال المذكورة، لما تنبّه لذلك معظم الناس، ولمضى الحديث على أنه كلام بشري، ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى))^(٣).

وقد تناول ابن عاشور - رحمه الله - هذه الآيات في تفسيره ولم يجعلها من قبيل ضمير الفصل، بل رد على ذلك حيث قال: ((وليس الضمير ضمير فصل؛ لأنّ ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف))^(٤).

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٤/٧ - ٢٥)، وعروس الأفراح (٣٣٢/٢)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص: ٤٥٦).

(٢) الشيخ الشعراوي - رحمه الله - ظاهرة فريدة في زماننا، فقد استطاع الشيخ عبر برامجه التلفزيونية أن يأخذ جمهور العامة إلى قضايا التدقيق ببلاغة القرآن، وهو أمر عجز عنه غيره، حيث لم يستطيعوا أن ينزلوا بهذه القضايا إلى عامة الناس، بل ظلت دائرة فيما بينهم.

(٣) معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي (١/٥١).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/١٤٢).

واعتراضه هنا اعتراضٌ وجيه؛ إذ يشير إلى أنه لا يلزم في كل ضمير أفاد معنى التوكيد والاختصاص أن يكون للفصل، وذلك لفقده أحد شروط كونه فصلاً.

ومن دقائق البلاغة الكامنة في هذه الآيات: أنَّ كل حرف من حروف العطف عطف في موضعه الملائم من السياق، ومكانه الدقيق، ففي قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، نجد أنَّ حرف العطف هو الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، إذ الهداية إنما تأتي بعد الخلق، والشفاء إنما يعقب المرض.

أما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ فقد عطف بالواو التي لا تدل على الترتيب، بل هي لمطلق الجمع، ولهذا لا ترتيب في الإطعام والإسقاء، فقد يتقدم أحدهما على الآخر، وقد يجتمعان.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فقد عطف بـ"ثم" التي تدل على الترتيب مع التراخي، ومعلوم أنَّ إحياء البعث يكون بعد الموت بزمان ومهلة كما قال الله جل وعلا في آية أخرى ﴿ثُمَّ أَمَانُهُ فَاقْبَرُوهُ ۖ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُوهُ﴾ [عبس: ٢١-٢٢].

يقول ابن الأثير - رحمه الله - في سياق حديثه عن البلاغة القرآنية التي تضمنتها الآيات المذكورة: ((كل شيء من الأفعال المذكورة قد عطف بما يناسبه، ويقع موقع السداد منه... وهذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى))^(١).

(١) المثل السائر لابن الأثير (٢/٢٥٩-٢٦٠).

وقال أيضاً عن أسرار حروف العطف: ((وهذا موضع من علم البيان شريف، وقلما يتقطن لاستعماله كما ينبغي)) المثل السائر (٢/٢٦١).
ومن تلك الأسرار البلاغية أيضاً أنَّ إبراهيم أسند المرض إلى نفسه، فلم يقل: أمرضني، وأسند الشفاء إلى الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ تأدبا مع الله تعالى، وإلا فالمرض والشفاء من الله تعالى.

انظر: البحر المحيط (٧/٢٥)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص: ٤٥٧)، وتفسير أبي السعود (٦/٢٤٩)، والتحرير والتنوير (١٩/١٤٣).

ما أروع هذا الإعجاز الذي لا تنهض به الكلمات، وتعجز عنه العبارات !

المثال السادس : قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقوله تعالى في سورة هود ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفُورُونَ﴾ [هود: ١٩].

ففي الآية الأولى لم يذكر ضمير الفصل بعد قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾، وأما في الآية الثانية فقد جاء بضمير الفصل، والسر في ذلك - كما يقول ابن الزبير الغرناطي - أنَّ سياق آية هود بني على الإطناب، فناسب زيادة ضمير الفصل، وسياق آية الأعراف بني على الإيجاز فناسب سقوطه^(١).

ومن القرائن الدالة على الإطناب في سياق آية هود: ورود الظاهر في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ولم يقل: ألا لعنة الله عليهم^(٢).

ويرى ابن عاشور - رحمه الله - أنَّ السر في زيادة الضمير في سورة هود هو ((أنَّ المقام هنا تسجيل إنكارهم البعث، وتقديره إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب، فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم، فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلتا المقالتين واقع وإنما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية))^(٣).

المثال السابع : قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ

(١) ينظر: ملاك التأويل (٤٩٦/٢).

(٢) ينظر: ملاك التأويل (٤٩٦/٢)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص: ١٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٤/١٢).

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الْطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ [النحل: ٧٢].

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَطَفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فقد ذكر ضمير الفصل في آية النحل دون آية العنكبوت، وفي ذلك يعلل
الخطيب الإسكافي أنَّ سياق آية النحل متصل بالمخاطبين، ثم انتقل الكلام في
نهاية الآية عن الخطاب إلى الإخبار - وهو ما يسمى بالالتفات^(١) -، فأكد الكلام
بضمير الفصل؛ لئلا يتوهم أنَّ هذا الإخبار خطابٌ، ولم يكن كذلك الأمر في
سورة العنكبوت؛ لأنَّ الإخبار المستمر في الآية التي قبل هذه أغنى عما
يحصره للخبر دون غيره، وهو قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا
وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾
[العنكبوت: ٦٥-٦٧] فترادف الإخبار عن الغيب أغنى عن توكيده^(٢).

المثال الثامن: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
[الحج: ٦٣-٦٤].

- (١) الالتفات: مصطلح بلاغي يقصد به التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم،
والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بآخر منها.
انظر: تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ص: ٨٦)، ومعجم البلاغة العربية للدكتور
بدوي طبانة (٧٩٢/٢).
(٢) درة التنزيل (ص: ١٥١).
وانظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص: ٣٧٣ - ٣٧٤)، وتفسير أبي
السعود (١٢٨/٥)، والتحرير والتنوير (٢٢٠/١٤).

وقوله في سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

يلاحظ أنَّ الله عز وجل قد قال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وقال في لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان؛ إذ زاد لام الابتداء فيها فأدخلها على (هو)، وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان.

وأما السياق في سورة العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان، وذلك أنَّها في سياق الفتن والابتلاء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرُّسُلُ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ سِدْرٍ مِّنَ رَبِّهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ثم قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] فاختلف أسلوب التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغني وزيادة اللام في الحج، وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغني في العنكبوت.

وذلك أنَّه في الحج ولقمان ذكرٌ لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق، وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه، وثمة فرق بين الغنيين: فالأول غني مُلك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين.

وتأمل في خاتمة الآي في كل منها، فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في سورة لقمان، وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر

الفتن - نسأل الله العافية منها -، لم يقل: ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بل قال: ﴿الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: غني عن جهادهم^(١).

ونلاحظ هنا كذلك كيف أن الله عز وجل لم يكتف بوصف ذاته العلية بالغنى، بل قال: ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فهو المحمود في غناه والمحمود في صفاته كلها على جهة الثبوت، وفي ذلك تعريض بالأغنياء المذمومين الذين لا يحمدهم أحد، ولم يأتوا بما يحمدون عليه.

المثال التاسع: قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

يلاحظ أن ضمير الفصل ذكر في آية الجاثية دون آية الأنعام، وفي ذلك يُعَلِّل ابن الزبير فيقول: إِنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ قَدْ تَقَدَّمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، ثم أعقبها بقوله: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ والمراد به عذاب الآخرة، فلم يتقدم من أول السورة إلى هذه الآية ما يُتوهم أنه فوز؛ ولذا لم يكن هناك داع إلى ضمير الفصل.

أما آية الجاثية: فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبراً عن قول منكري البعث: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فأفهم قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أَنَّ هذه الحياة هي الحاصلة لهم ولا حياة وراءها، فمن تنعم فيها فذلك فوزه، فأخبروا أَنَّ الأمر ليس كما ظنوا، ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، فكأن قد قيل لهم: ذلك هو الفوز لا ما ظننتموه فوزاً، فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود، ولم يتقدم في آية الأنعام ما يستدعيه، فجاء كل على ما يناسب^(٢).

(١) انظر: التعبير القرآني (ص: ١٦٨ - ١٦٩).

(٢) انظر: ملاك التأويل (١/ ٤٢٥ - ٤٢٦).

ويرى الدكتور محمد فاضل السامرائي أنَّ درجة الفوز في آية الجاثية أعلى منها في آية الأنعام؛ ذلك أنَّ الله جل وعلا قال في آية الجاثية: ﴿يَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، و (في) تفيد معنى الظرفية، فكأنَّ رحمة الله شيء تضمهم وتجعلهم منغمسين ومتنعمين فيها، وهذا المفهوم غير موجود في آية الأنعام، حيث قال: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ بصيغة الفعل الماضي، وهنا كانت درجة الفوز في آية الجاثية أعلى لعلو المكانة فيها.

ولما كان الأمر كذلك أكدَّ الفوز بضمير الفصل (هو) في آية الجاثية، ولم يؤكِّد في آية الأنعام^(١).

المثال العاشر: قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ففي سورة السجدة أثبت ضمير الفصل (هو) من أجل التأكيد والحصر لفصل الخلاف المذكور في قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وأما السياق في سورة الحج، فلم يذكر الاختلاف، وإنما ذكر الشهادة على كل شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فاقتضى المقام تأكيد الفصل في آية السجدة دون آية الحج.

يقول ابن عاشور - رحمه الله - مشيراً إلى ضمير الفصل المذكور في آية السجدة: ((وضمير "هو" في قوله "هو يفصل" ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى؛ إيماء إلى أنَّ ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعاً منه أن يرتدعوا عن اختلافهم، وإنما هو

(١) انظر: دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل للدكتور محمد فاضل السامرائي (ص: ٢١٨).

للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم ؛ لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة^(١).

وهكذا تبين لنا ما لضمير الفصل مع آيات المتشابه اللفظي من أسرار بلاغية، ودلالات بيانية لا تنفذ، ولا يمكن لأحد حصرها.

فكتاب الله جل وعلا تقع كل لفظة في موقعها المناسب، وذلك خصيصة من خصائصه، كما أنه وجه من وجوه إعجازه البلاغي، بل هو أبرز وجه كما هو مبثوث في كتب إعجاز القرآن الكريم.

تلك كانت أبرز آيات المتشابه اللفظي التي تمكنت من رصدها، وهي غيض من فيض من بحر البلاغة القرآنية، وكيفينا أن نأتي بما يسمح به المقام، وقديماً قيل: يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وهذه أيضاً طائفة من الشواهد القرآنية أفاد فيها ضمير الفصل التوكيد والتقوية، وهي ليست من آيات المتشابه اللفظي :

أ- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

يقول ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية : ((وإقحام ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند في مثل هذه الأمثلة استعمالٌ معروف، لا يكاد يتخلف قصداً لتأكيد الاتحاد، فليس في مثل هذا التركيب إفادة قصر أحد الجزأين على الآخر، وليس ضمير الفصل فيه بمفيد شيئاً سوى التأكيد))^(٢).

- وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

انظر إلى سمو التعبير القرآني كيف هو معجز وبديع في كل مفردة وتركيب، لم يقل في هذا السياق: "أنت العالي"، ولم يقتصر على أحد الضميرين فيقول: "إنك الأعلى" أو "فأنت الأعلى"، بل أكد القول بـ "إن"، وأكد

(١) التحرير والتنوير (٢١/٢٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٥٢).

ضمير المخاطب المتصل بضمير الفصل ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾، وجاء الخبر على صيغة اسم التفضيل ﴿الْأَعْلَى﴾ وعرفه بـ"أل"، كل ذلك لإبراز علوه وغلبته عليه السلام على خصومه، وليزيد في طمأنينة قلبه بوعده ربه جلّ جلاله.

- وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١].

فضمير الفصل في قوله: ﴿كَانُوا هُمْ﴾ جيء به للتأكيد، ولا يراد به قصر المسند على المسند إليه؛ إذ ليس للقصر معنى هنا^(١).

وعلى هذا النهج جاءت الآيات التالية:

- ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

- ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢].

- ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

- ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢].

- ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ﴾ [المزمل: ٢٠].

المبحث الثاني

وظيفة القصر والحصر والاختصاص

بعد أن عرضنا وظيفة التوكيد، وأوردنا الأمثلة الدالة عليها وما تضمنتها من أسرار ونكت بيانية، نعرض هنا الوظيفة المعنوية الثانية لضمير الفصل،

(١) انظر: المصدر السابق (١١٩/٢٤).

وهي القصر والحصر والاختصاص، وتلك مصطلحات متقاربة بل مترادفة عند بعض أهل العلم^(١).

وإذا كان بعض أهل العلم يرى التفريق بين تلك المصطلحات ككتفي الدين السبكي (ت ٧٥٥هـ) الذي ألّف رسالة أسماها: "الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص" فإنّ العرف البلاغي ساوى بين هذه الاصطلاحات^(٢).

والمقصود بالقصر والحصر والاختصاص هنا هو قصر المسند على المسند إليه باعتبار أنّ ضمير الفصل من أساليب القصر التي أقرّها البلاغيون^(٣).

كما أنّ القصر في حقيقته تأكيد فوق تأكيد بمعنى أنّ المتكلم يضغط جملتين في جملة واحدة.

ومن أمثلة هذه الوظيفة:

أ - قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠].

فضمير الغيبة في الآية ضمير فصل، والتعريف في ﴿الْهُدَى﴾ تعريف الجنس الدال على الاستغراق، فثمة أسلوبان من أساليب الحصر هما: ضمير الفصل وتعريف الجزأين، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به^(٤).

وإفادة الخبر المعرف بالألف واللام معنى القصر أشار إليها الجرجاني بقوله: ((واعلم أنّك تجد "الألف واللام" في الخبر على معنى الجنس، ثم ترى له في ذلك وجوهاً:

-
- (١) انظر: الإتيان (٧٩٦/٢).
 - (٢) ضمّن بهاء الدين السبكي رسالة والده في كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" (١/٤٧٨-٤٨٣)، كما أنّ السيوطي ذكرها في مقدمة الإتيان ضمن موارده في الإعجاز وفنون البلاغة.
انظر: الإتيان (٢٢/١).
 - (٣) ينظر: دلائل الإعجاز (ص: ١٧٩)، ومغني اللبيب (٢/٤٩٦)، وعروس الأفراح (١/٣٣٣-٣٣٢)، والإتيان (٢/٨٠٠).
 - (٤) انظر: روح المعاني (١/٣٧٢)، والتحرير والتنوير (١/٦٩٤).

أحدها: أن تقصر جنس المعنى على المُخْبَر عنه لقصدك المبالغة، وذلك قولك: "زيد هو الجواد" و "عمرو هو الشجاع"، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة تُوهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه؛ وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال...^(١).

ب - ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

نجد أن القرآن الكريم قد استخدم القصر بضمير الفصل في مشهد الآخرة مع وجود مؤكّدات أخرى: الجملة الاسمية، و "إن"، ولام الابتداء؛ وذلك لتقرير أهمية حياة الآخرة للإنسان، وأنّها هي الحياة الحقيقية التي تفيض حيوية، وانظر إلى اختيار لفظ ﴿الْحَيَوَانُ﴾ في سياق المقطع، فهو يعطي صورة أعمق وأكمل عن معنى حياة الآخرة، فقد جاء على وزن "فعلان" الذي يفيد الاضطراب والحركة كما هو مقرر في قواعد علم الصرف^(٢)، كل ذلك ليتناسب مع وصف مشهد الآخرة.

يقول ابن عاشور - رحمه الله - مشيراً إلى البلاغة الكامنة في اختيار لفظ ﴿الْحَيَوَانُ﴾: ((...الحياة الآخرة هي الحياة الحق صيغ لها وزن الفعلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرك توضيحاً لمعنى كمال الحياة بقدر المتعارف، فإنَّ التحرك والاضطراب أماراة على قوة الحيوية في الشيء مثل الغليان واللهبان))^(٣).

ج - ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

جاءت هذه الآية في سياق الرد على المشركين الذين أنكروا البعث والحشر وكانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا﴾

(١) دلائل الإعجاز (ص: ١٧٩).

(٢) ينظر: فتح الأقفال وحل الأشكال بشرح لامية الأفعال للبحرق (ص: ١٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣١/٢١).

إِلَّا الدَّهْرُ ﴿الجاثية: ٢٤﴾، فجعل من بين المؤكّدات في الخبر ضمير الفصل لإفادة الحصر، جاء في روح المعاني: ((وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية ... وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار ...))^(١).

د - ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفَوْنَ﴾ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿الصافات: ١٦٥-١٦٦﴾.

فضمير الفصل "نحن" في الآيتين يفيد الحصر، ومعناه: أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم.

يقول أبو السعود (ت ٩٥١هـ) في تعليقه على الآية: ((وتحلية كلامهم بفنون التأكيد - وهي القصر وضمير الفصل ولام الابتداء وحرف "إن" - لإبراز أن صدوره عنهم بكامل الزينة والنشاط، هذا هو الذي تقتضيه جزالة التنزيل))^(٢).

هـ - ومنه قوله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

يلاحظ أن الله عز وجل نفى الولاية عن الظالمين بقوله قبل هذه الآية: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]، ثم صدر عند ذكر اتخاذ هؤلاء أولياء من دون الله ب (أم) المعادلة التي تفيد - هنا - معنى الإضراب: أي: بل اتخذوا من دونه أولياء، فانتقل بعد ذلك إلى تقرير حقيقة أن صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى، لا تتعداه إلى غيره من المعبودات التي اتخذوها آلهة من دونه.

و - ومن تلك الأمثلة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

(١) روح المعاني (٢٢/٢١٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/٢١٠).

فقد ذكر في الآية عدم المساواة بين الفريقين بأسلوب النفي ثم أتى بضمير الفصل الذي يفيد قصر صفة الفوز على أصحاب الجنة، والآية من الآيات التي استدلت بها البلاغيون على أن ضمير الفصل يفيد القصر والاختصاص^(١).

ز - ومن الأمثلة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣].

فأكّد الضمير المتصل بضمير الفصل ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، ثم أكّد التنزيل بالمصدر المؤكّد ﴿تَنْزِيلًا﴾ فأكّد المنزل والتنزيل، وقد ذكرت الآية المنزل وهو الله تعالى، والمنزل عليه وهو النبي ﷺ، والمنزل وهو القرآن.

والتعبير بفعل ﴿نَزَّلْنَا﴾ المضعّف للإشارة إلى التنزيل المفرّق التدريجي، ومن هنا فرّق أهل العلم في التعبير القرآني بين لفظ "نزل" و "أنزل"، فالإنزال يستعمل غالباً في الدفعة الواحدة، والتنزيل يستعمل في التدرّج.

يقول الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]: ((فإن قلت: لم قيل: نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل؟ قلت: لأنّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة))^(٢).

ح - ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَطَعَنُوهُ أَلَّا يُبَدِّلَ مَا وَفَّقَكُمُ اللَّهُ بِهِ فَإِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

تضمنت الجملة هنا أربعة مؤكّدات: "إن" وضمير الفصل المفيد للقصر، والجملة الاسمية التي لا يقيدتها زمان، وإنما هي دالة على الثبوت والدوام،

(١) انظر: عروس الأفراح (٣٣٣/١).

(٢) الكشف (٤١١/١)، وانظر: ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي (٢٨٦/١)، والتحرير والتنوير (٤٠٢/٢٩ - ٤٠٣).

وتعريف الخبر، كل ذلك للدفاع عن رسول الله ﷺ وتطبيب قلبه الشريف من كلام صادر من معين.

يقول ابن عاشور: ((فحصل القصر في قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ لأنَّ ضمير الفصل يفيد قصر صفة الأبتَر على الموصوف، وهو شائئ النبي ﷺ، قصر المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب، أي هو الأبتَر لا أنت))^(١).

ومعنى الشائئ: المبغض من الشنآن، وهو العداوة والبغضاء، والأبتَر من البتر، وهو القطع، فالأبتَر المنقطع عن كل خير، ويقال لمن لا نسل له: أبتَر؛ لأنَّه انقطع نسله^(٢).

ومما ذكره المفسرون في المَعْنَى بهذه الآية وفي سبب نزولها أنَّ العاص بن وائل السهمي كان إذا ذُكر رسول الله ﷺ قال: دعوه؛ فإنما هو رجل أبتَر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحم منه، فنزلت الآية^(٣).

واختيار صيغة ﴿الْأَبْتَرُ﴾ من أجل تقوية الحصر، فهو لم يقل: "إِنَّ شَانِئَكَ أبتَر" أو "إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ أبتَر" فيجعله من جملة البُتْرِ بل قال ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

ولم يقل كذلك: "إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ المبتور"؛ لأنَّ صيغته اسم مفعول الدال على الحدوث والتجدد، فقد يزول عنه هذا البتر، وفي ذلك يقول الألوسي: ((وفي التعبير بالأبتَر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة))^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٥٧٦/٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٩٧/٢٤)، والعمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي (ص: ٣٥٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦٩٧-٦٩٨)، وأسباب النزول للواحدي (ص: ٤٦٦).

(٤) روح المعاني (٢٤٨/٣٠).

ومن الأمثلة القرآنية التي اشتملت على هذه الوظيفة أيضا قوله تعالى :

- ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].
- ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].
- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].
- ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].
- ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].
- ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤].
- ﴿أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].
- ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].
- ﴿الظَّالِمُونَ يَمُوسَى إِنَِّّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].
- ﴿وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام: أن نشير إلى اجتماع وظيفتين أو أكثر في مثال واحد أحيانا، وهو مظهر من مظاهر الإعجاز البياني حيث لا تتزاحم أسرارها، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] نلاحظ أن ضمير الفصل قد دخلت عليه لام الابتداء لزيادة التقوية التي أفادها ضمير الفصل، كما أنه يفيد القصر أي هذا القصص لا ما تقصه كتب النصارى وعقائدهم^(١).

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤٧/٢)، والتحرير والتنوير (٢٦٧/٣).

يقول العلوي في معرض تعداده فوائد ضمير الفصل : ((...وكما هي مفيدة للتأكيد كما ترى ففيها دلالة على الاختصاص ؛ لأنه إذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فإنما جاء بالضمير ليدلّ على أنّهم لكفروهم اختصوا بمزيد الظلم الفاحش، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دلالة على مزيد اختصاصهم بالإيمان، واستحقاقهم لصفته من بين سائر الخلق، فيؤخذ الاختصاص والتأكيد من هذا الضمير))^(١).

المبحث الثالث

وظيفة التمييز بين الخبر والتابع

مهمة هذه الوظيفة لفظية، وهي التمييز بين الخبر والتابع، والإعلام من أول وهلة بكون الخبر خبراً لا تابعاً، ولهذا سمّاه البصريون "فصلاً" كما سبق.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أنّ جمهور النحاة ضيّقوا دائرة وظائف هذا الضمير في الجملة العربية، واقتصروا على هذه الوظيفة اللفظية فحسب، انظر إلى كلام الرضى الاسترأبادي حينما يقول : ((فالغرض من الفصل في الأصل فصل الخبر عن النعت))^(٢).

والتحقيق: أنّ وظائفه الدلالية - وعلى رأسها التوكيد - أقوى وأكثر من الوظائف التركيبية اللفظية، وسبق أن أردنا في بداية هذا الفصل نقد ابن هشام للنحويين في قصور نظرتهم لوظائف ضمير الفصل، وثنائه على الزمخشري؛ لاتساع نظرتة، واكتمال الرؤية عنده.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً لهذه الوظيفة فلنتأمل قول الله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فلو جردت هذه الآية من ضمير الفصل لتوهم أنّ قوله: ﴿الْغَنِيُّ﴾ ما هو إلا صفة

(١) الطراز للعلوي ١٤/٢ - ١٤٥).

(٢) شرح الرضى لكافية ابن الحاجب (١/١٧٠ القسم الثاني).

للفظ الجلالة، وأنَّ الخبر لم يأت بعد، فضمير الفصل هو الذي يرفع مثل هذا الوهم واللبس ويشعر بأنه الخبر.

وعندما لا يكون هناك وهمٌ ولبس نجد النص القرآني خالياً من ضمير الفصل، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، فقد جاءت جملة مستقلة بعد الجملة الاسمية.

ولولا ضيق المقام لعرضنا مزيداً من الأمثلة لهذه الوظيفة اللفظية، ولكننا نلقت النظر إلى أنَّ عشرات الأمثلة التي أوردناها لوظيفة التوكيد والتقوية أو وظيفة القصر والحصص تصلح - كذلك - أن تكون أمثلة لوظيفة التمييز بين الخبر والتابع.

تلك أهم وظائف ضمير الفصل في القرآن الكريم، وعليها مدار الحديث عند المفسرين والبلاغيين والنحويين.

الخاتمة

بعد هذا التطواف في رحاب ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم رأيت أن أبرز هنا ما يمكن استخلاصه من نتائج ذات أهمية، وقد تمثلت بما هو آت :

أولاً: أبانت الدراسة أن لهذا المصطلح تسميات عدة عند أهل العلم :

- ضمير الفصل عند البصريين.
 - عماداً أو دعامة عند الكوفيين
 - ومنها : الفاصلة، والصلة والزائد، والرابطة، وحرف الفصل.
- ثانياً: مصطلح ضمير الفصل - وهو مصطلح بصري - أدق وأنسب من المصطلحات الأخرى؛ إذ هو السائد المشهور، كما أنه يعطي المعنى الدقيق للكلمة.

ثالثاً: التعريف الدقيق لمصطلح "ضمير الفصل" هو: صيغة ضمير منفصل مرفوع يتوسط بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر.

رابعاً: استعرضت الدراسة خلاف أهل العلم حول اسمية ضمير الفصل أو حرفيته، وتبين أن القول الراجح هو اعتبار ضمير الفصل حرفاً لا يعمل شيئاً، ولا يؤثر في غيره تأثيراً إعرابياً، ولكن له وظائف نحوية وبلاغية اقتضت وجوده.

خامساً: أوردت الدراسة شروط ضمير الفصل مقرونةً بأمثلتها القرآنية، وكانت موزعةً كالآتي:

- شرطان فيما قبل ضمير الفصل.
- شرطان فيما بعده.
- شرطان في ذاته.

سادساً: لضمير الفصل وظائف وأغراض يحققها عند الإتيان به، أبرزها: التوكيد والتقوية، والقصر والحصر والاختصاص، والتمييز بين الخبر والتابع.

سابعاً: أظهرت الدراسة مدى أهمية التوكيد بضمير الفصل، وما تضمنه من أسرار بلاغية، ولطائف دقيقة، وذلك قليل من كثير، وقطرة من بحر مما في كتاب الله من أسرار عظيمة لا يمكن لأحد الإحاطة بها.

ثامناً: انضح لنا في هذه الدراسة دور ضمير الفصل في السياق القرآني وأثره في إبراز المعاني القرآنية، ولا سيما في المتشابه اللفظي من الآيات القرآنية.

تاسعاً: تجلّى في البحث كذلك أثر السياق في النظم القرآني: سباقه ولحاظه، فهو يرسم صورة واضحة لكيفية تأليف الكلام، وانتقاء ما يلائم المعنى من ألفاظ.

عاشراً: آيات القرآن الكريم تقع فيه كل لفظة في موقعها المناسب من التركيب، ولا يمكن تغييرها، وكل حرف معجز في موضعه الذي لا يغني عنه غيره، وإلا اختل المعنى، وفقد السياق مراده، وذلك أبرز وجه من وجوه إعجازه البلاغي، ورحم الله مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) فمن نفائس كلامه قوله: ((وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها ..فترى اللفظ قاراً في موضعه؛ لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه ...))^(١).

الحادي عشر: تبين من خلال هذه الدراسة أنَّ أشهر من تناول بلاغة ضمير الفصل في القرآن الكريم هم مؤلفو المتشابه اللفظي في القرآن كالخطيب الإسكافي، وابن الزبير الغرناطي، وكذلك ابن عاشور في تفسيره، ففيه كنوز بلاغية مدفونة قلما توجد في غيره من التفاسير.

الثاني عشر: أبرزت الدراسة أنَّ لآيات المتشابه اللفظي أسراراً بديعة، ليس

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى الرافعي (ص: ٢٨١ - ٢٨٢).

في بلاغة التوكيد بضمير الفصل فحسب، بل في اختلافها في التعريف والتذكير، والتقديم والتأخير، والجمع والإفراد، إلى غير ذلك من وجوه النظم، كل هذه الأمور مجالات بحاجة إلى مزيد من الدراسة^(١).

الثالث عشر: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم معين لا ينضب، وبحر لا يُدرك غوره، يرتوي منه كلُّ من أراد الوقوف على هدايات القرآن وأوجه إعجازه. هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) للدكتور محمد بن علي الصامل جهود مشكورة في العناية ببلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، فقد أورد عشرة مواضع من أول الفاتحة إلى أوائل سورة البقرة في كتابه: من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

- ١ - الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق د / مصطفى ذيب البغا، نشر دار ابن كثير دمشق، ط-١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٢ - ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق د / مصطفى النماس، مطبعة المدني، القاهرة، ط-١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- ٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ٥ - إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق د/زهير زاهد، طبعة عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، ط-٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٦ - الإكسير في علم التفسير، لسليمان بن عبدالقوي الصرصري الطوفي (ت ٧١٦هـ)، تحقيق د / عبدالقادر حسين، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٧ - ألفية ابن مالك في النحو والصرف، لمحمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ)، دار ابن حزم، ط-١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ٨ - الأمالي النحوية، لأبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، تحقيق هادي حسن حمودي، ط-١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٩ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، لأبي

- البركات عبدالرحمن بن محمد الشهير بـ "ابن الأنباري" (ت ٥٧٧هـ)،
نشر المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ١٠- الإيضاح في شرح المفصل، لأبي عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب
(ت ٦٤٦هـ)، تحقيق د / موسى العليلى، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢م.
- ١١- الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبدالرحمن القزويني (ت ٧٣٩هـ)،
شرح وتعليق عبدالمنعم الخفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت،
١٩٨٩م.
- ١٢- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، نشر
دار الفكر، بيروت.
- ١٣- بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر الزرعي الشهير بابن القيم (ت ٧٥١هـ)،
تحقيق هشام عطاء وعادل العدوي، وأشرف أحمد، نشر مكتبة نزار
مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط-١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ١٤- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي
(ت ٧٩٤هـ)، حققه د / يوسف المرعشلي وزميلاه، نشر دار المعرفة،
بيروت، ط-١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- ١٥- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)،
تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ١٦- التحرير والتنوير، لمحمد طاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، نشر الدار
التونسية للنشر.
- ١٧- التطور النحوي للغة العربية، لبرجشتراسر، ترجمة رمضان عبدالنواب،
مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ١٨- التعبير القرآني، للدكتور فاضل صالح السامرائي، نشر دار عمار، الأردن،
ط-٦، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- ١٩- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، لمحمد بدر الدين بن أبي بكر الدماميني

- (ت ٨٢٧هـ)، تحقيق د / محمد بن عبدالرحمن المفدى، ط-١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٢٠- تلخيص المفتاح، لمحمد بن عبدالرحمن القزويني (ت ٧٣٩هـ)، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر.
- ٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق د / عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر، نشر دار هجر للطباعة والتوزيع، ط-١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- ٢٢- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق د / عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالاشتراك مع آخرين، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط-١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- ٢٣- الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق د / فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٢٤- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبدالخالق عزيمة، مطبعة حسان، القاهرة.
- ٢٥- درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الأصبهاني الشهير بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط-١، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- ٢٦- دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط-٢، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- ٢٧- دلالات التراكيب، للدكتور محمد أبو موسى، دار المعلم، ١٣٩٩هـ.
- ٢٨- رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد عبدالنور المالقي

(ت٧٠٢هـ)، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٠- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي نور الدين الأشموني (ت٩٢٩هـ)، تحقيق د/ عبد الحميد السيد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٣١- شرح ألفية ابن معطي، لعبد العزيز بن جمعة الموصلي المعروف بابن القواس، تحقيق د/ علي الشوملي، نشر مكتبة الخريجي، الرياض، ط-١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣٢- شرح التسهيل، لمحمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي (ت٦٧٢هـ)، تحقيق د/ عبدالرحمن السيد، مكتب الأنجلو المصرية، ط-١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٣٣- شرح جمل الزجاجة، لابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ)، تحقيق صاحب أبو جناح، مطبعة بغداد، ١٩٨٢م.

٣٤- شرح الرضى لكافية ابن الحاجب، لمحمد بن الحسن الاسترأبادي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق د/ حسن الحفظي، ود/ يحيى بشير مصري، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط-١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٣٥- شرح الكافية الشافية، لمحمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي (ت٦٧٢هـ)، تحقيق د/ عبدالمنعم الهريدي، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ط-١، ١٤٠٢هـ.

٣٦- شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن عل بن يعيش (ت٦٤٣هـ)، نشر عالم الكتب، بيروت.

٣٧- الضمائر المحتملة في القرآن الكريم، للدكتور ملفي بن ناعم الصاعدي،

بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (١٢٧) ١٤٢٥هـ.

٣٨- طبقات القراء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق د/ أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٨هـ.

٣٩- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٤٠- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبدالكافي السبكي (ت٧٧٣هـ)، تحقيق د/ خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت (ضمن سلسلة شروح التلخيص)، ط-١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤١- على طريق التفسير البياني للدكتور فاضل صالح السامرائي، منشورات جامعة الشارقة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٢- فتح الأقفال وحل الأشكال بشرح لامية الأفعال، لجمال الدين محمد بن عمر المعروف ببهرق (ت٩٣٠هـ)، تحقيق د/ مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤٣- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، للقاضي زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، دار عالم الكتب، بيروت، ط-١، ١٤٠٥هـ.

٤٤- الفهرست، لمحمد بن إسحاق النديم (ت٣٨٥هـ)، تحقيق رضا تجدد، مطبعة طهران، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٤٥- فهرست مصنفات القرآن الكريم، إصدار مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٤هـ.

٤٦- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٦هـ)، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- ٤٧- الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الشهير بسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض.
- ٤٨- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق عبدالرزاق المهدي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٩- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، حققه عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط-١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٥٠- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة، مطابع الفرزلق، الرياض، ط-٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٥١- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، تعليق د/ محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر.
- ٥٢- مختصر في شواذ القراءات، لحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، عني بنشره برجستراسر، المطبعة الرحمانى بمصر، ١٩٢٤م.
- ٥٣- المساعد على تسهيل الفوائد، لبهاء الدين بن عقيل (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق د/ محمد كامل بركات، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى.
- ٥٤- مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق ياسين محمد السواس، مطبعة دمشق، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- ٥٥- مصطلحات النحو الكوفي دراستها وتحديد مدلولاتها، للدكتور عبدالله بن حمد الخثران، دار هجر للطباعة والنشر، ط-١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- ٥٦- معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢١٥هـ)،

- تحقيق د/ فائز فارس، المطبعة العصرية بالكويت، ط-٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- ٥٧- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط-٣، ١٤٠٣هـ.
- ٥٨- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق د/ عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط-١، ١٩٨٨م.
- ٥٩- معجزة القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٨هـ)، دار الكتاب العالمي بمصر، ومكتبة تهامة بجدة ط-٤، ١٤٠٧هـ.
- ٦٠- معجم البلاغة العربية، للدكتور بدوي طبانة، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢.
- ٦١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط-٢، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- ٦٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبي محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ٦٣- مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، نشر دار الفكر، بيروت، ط-٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ٦٤- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده (ت٩٦٨هـ)، تحقيق كامل البكري وعبدالوهاب أبي النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- ٦٥- المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.
- ٦٦- ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ

من آي التنزيل، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي
(ت ٧٠٨هـ)، تحقيق د / سعيد الفلاح، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت،
ط-١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦٧- النحو الوافي، لعباس حسن، نشر دار المعارف، القاهرة.

٦٨- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر
السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.